

بسم الله الرحمن الرحيم

شرح رياض الصالحين

شرح حديث أبي هريرة -رضي الله عنه- "أَنَّ امْرَأَةً سَوْدَاءَ كَانَتْ تَقُمُّ الْمَسْجِدَ .."

الشيخ: خالد بن عثمان السبت

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

ففي باب فضل ضعفة المسلمين أورد المصنف -رحمه الله- حديث أبي هريرة -رضي الله عنه- ((أَنَّ امْرَأَةً سَوْدَاءَ كَانَتْ تَقُمُّ الْمَسْجِدَ، أَوْ شَابًا...))^(١)، يعني: أنه شك من الراوي، وقد جاء هذا في بعض الروايات أن الذي كان يقم المسجد كان من الرجال، وفي بعضها أنه امرأة، وهذا هو المشهور.

((أَنَّ امْرَأَةً سَوْدَاءَ كَانَتْ تَقُمُّ الْمَسْجِدَ))، أي: تقوم بقمه، أي: تنظيفه، وفي بعض الروايات أنها مولعة بلقط الأذى والقذى من المسجد.

((فَقَدَهَا - أَوْ فَقَدَهُ - رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -، فَسَأَلَ عَنْهَا - أَوْ عَنْهُ -، فَقَالُوا: مَاتَ))، وهذا يدل على أن النبي -صلى الله عليه وسلم- كان يتفقد الجميع، حتى الضعفاء الذين لا شأن لهم في نظر الكثيرين، إنسان يقم المسجد، ليس قائد جيش، وليس أميراً، أو رئيس قبيلة، أو نحو ذلك، كان يقم المسجد، أو امرأة كانت تقم المسجد.

فكان يتفقد أصحابه -عليه الصلاة والسلام-، ففقد هذا أو هذه المرأة فسأل عنها، أو عنه، فقالوا: مات، قال: ((أَفَلَا كُنْتُمْ آذَنْتُمُونِي بِهِ؟))، يعني: أعلمتموني بموته، فكأنهم صغروا أمرها أو أمره، يعني: كأنهم رأوا أن الأمر ما يستدعي إعلام النبي -صلى الله عليه وسلم- لأنه جاء في بعض الروايات أنها ماتت بليل، فرأوا أن الأمر لا يتطلب المشقة على رسول الله -صلى الله عليه وسلم- من أجل أن يأتي بليل إلى المقبرة، ويشهد دفن هذه المرأة، فهي لا شأن لها، يقوم بهذا الأمر طائفة من أصحابه، ويحصل المقصود. فالحاصل كأنهم صغروا أمرها أو أمره، فقال: ((دلوني على قبره))، يعني: قبر الميت سواء كان امرأة أو رجلاً بحسب الروايات، فدلوه عليه.

ويستفاد من هذا الحديث: جواز الدفن بالليل، وقد جاء النهي عنه عن النبي -صلى الله عليه وسلم- في بعض الأحاديث، ومن أهل العلم من حمل النهي الوارد على اعتبار أنه إذا لم يمكن القيام بحق الميت من تغسيله على الوجه المطلوب، وتكفينه على الوجه المطلوب، ودفنه على الوجه المطلوب، ويوجد في بعض ما ورد عن النبي -صلى الله عليه وسلم- ما يدل على هذا المعنى، أن النهي لهذه العلة، وهذا هو الأقرب -والله تعالى أعلم- بدليل أن هذه دفنت ليلاً، ولم ينكر عليهم النبي -صلى الله عليه وسلم-، وهكذا أيضاً أبو بكر -رضي الله عنه- ورد أنه دُفن في الليل، وورد هذا عن جماعة من الصحابة -رضي الله تعالى عنهم-

^١ - أخرجه البخاري، كتاب الصلاة، باب الخدم للمسجد (٩٩/١)، رقم: (٤٦٠)، ومسلم، باب الصلاة على القبر (٦٥٩/٢)، رقم: (٩٥٦).

وأرضاهم - أنهم دُفِنوا بالليل، فهذا يدل - والله أعلم - على أنه يجوز دفن الميت ليلاً إذا تحقق ما ذكرت من إحسان التغسيل، وإحسان الكفن، وإحسان الدفن، وهذه الأمور متيسرة في عصرنا الحاضر بهذه الإمكانيات التي منحها الله - عز وجل - للناس من الإضاءة، ومن أمور كثيرة جداً، بخلاف ما كان عليه الناس في السابق، يقال: فلان دفن في الليل، فقد لا يكون جُهِز كما ينبغي، ولا دفن كما ينبغي.

فالحاصل أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال: ((دلوني عليه))، ثم قال: ((إن هذه القبور مملوءة ظلماً على أهلها...)).

قوله - صلى الله عليه وسلم -: ((دلوني على قبره)) لماذا؟ من أجل الصلاة عليه، وهذا يدل على أن الإنسان الذي فاتته الصلاة على الميت يمكن أن يصلي على قبره بعد الدفن، ولا إشكال في هذا، مع أن الصلاة في المقبرة ممنوعة، لكن لهذا المعنى، فيكون ذلك لعذر.

((إن هذه القبور مملوءة ظلماً على أهلها، وإن الله تعالى ينورها لهم بصلاتي عليهم))، متفق عليه.

فالنبي - صلى الله عليه وسلم - لم يتركها بل سأل عنها وعاتبهم، وقال: ((دلوني على قبرها))، كل ذلك اهتماماً بهذه المرأة التي كانت تقم المسجد.

وهذا يدل على كمال رحمته - صلى الله عليه وسلم - وشفقته وتواضعه، فإن المتكبر لا يفعل مثل هذا، ولا يسأل عمن لا شأن لهم، ولا مكانة، ولا منزلة، بل يحتقرهم، ولا ينظر إليهم، ولا يسلم عليهم.

الآن أحاد الناس لربما يستصعب أنه يرفع يده يسلم على عامل النظافة الذي يراه في الطريق، أو نحو ذلك، والنبي - صلى الله عليه وسلم - وهو أكمل الأمة وأشرفهم يسأل، ويذهب، ويصلي على هذه المرأة، فلنا به أسوة - عليه الصلاة والسلام -، وهذا كله يرجع إلى هذا المعنى الكبير، وهو أن قدر الإنسان ليس بشكله، وليس بوظيفته، وليس بنسبه وشرفه، وإنما بتقواه الله - تبارك وتعالى -، حتى لو كان يقم - يكنس - الشوارع، أو المسجد، أو أنه يشتغل بأشغال ضعيفة لا شأن لها عند الناس، ولا اعتبار بها، فالعبرة بالتقوى، ليست العبرة أين تشتغل، وليست العبرة بمؤهلات الإنسان، والشهادات التي يحملها، وإنما العبرة بما يحمله بين جنبيه من التقوى لله - عز وجل -، والعلم الصحيح النافع، وما إلى ذلك.

فأسأل الله - عز وجل - أن ينفعنا وإياكم بما سمعنا، وأن يجعلنا وإياكم هداة مهتدين، وصلى الله على نبينا محمد، وآله وصحبه.